

أرسطو طاليس

الفصل الأول

حياته وتآليفه

لم يتح لطائفة الفلاسفة أن تبلغ بهم النباهة بين العموم وبعد الصيت بحيث أصبح أسماؤهم من الألفاظ التي يلجج بها أهل المنازل ، ويصل بعد صيتهم إلى أن ينوء بذكرهم في المجالس والمحافل ، وتسير بانباتهم الركبان ، ويشار إليهم باطراف البنان ، كما وقع لقطا حل الشعراء ، وأفاضل الأدباء والبلغاء ،

ومن العسير المستنكر في تصورنا أن نعزو المرء إلى شرف الإطلاع والدراية ما لم يكن قد تنهاى إليه اسم « سوفوقليس » واتصل بمسامعه سمعة « مولير » ، الشاعر الشهير الكبير ، فالمنظنون والماملون في كل ذي اطلاع ، والأمر المنتظر من كل أديب أريب هو أن يعرف على الأقل من هم أولئك الكتاب النبلاء النبهاء ، واية حقيقة وماهية أباطو اللثام لأنفسهم عنها ، وإن يلحظ في الحال بالمعيتة وتوقد قريحته ما يومض إليه أى استشهاد يلبع إلى « انتيجون » أو قالى الانسانية .

بيد أنا إذا اعتقدنا الرجل تام الدراية والدربة عند ما يكون مترع الذهن مفعم الخلد والذكر بقريض الشعراء ونثر المؤرخين والأدباء ، فلا نخاله ناقص الإطلاع مخدج الإدراك والعرفان إن كان جاهلا

باسم مثل ديكارت ، و دكنت ، ومع ذلك ورغم ما هنا وهناك ،
فقد جاد الزمان علينا بالفيف من الفلاسفة وأقطاب المعرفة والحكمة ،
ابلوا بلاء حسنا في التعليم والتأديب ، وكان تأثيرهم على الأفكار
واللغة في المكانة المثلى ، والدرجة الحسنى العظمى ، بحيث لم يعد في
وسع إنسان ذى نظر وعرفان أن يحفل أو يتجاهل اسماءهم وان
أى ناطق بلغة مهذبى الاوربيين فانه مولع على الدوام باستعمال
متن لغتهم .

ومن هذا اللفيف الممتاز والقبيل الخطير الامتياز ، فليسوفنا النبیه
أرسطو وهو بينهم لا يقل مكانة ، فكل منا قد نرى إليه نبوة كما رقى
إلى أسماعنا جميعا فضل الشاعر الشهير الكبير وأومير وس ، فلا مربة
ولا شبهة فيما آتاه وخلفه من الأثر البليغ المائل على علم اللاهوت ،
حتى أن العديد الوافر ، والكثير الجهم من صيغ الكنائس المسيحية
وعباراتها ، لا تحل رموزها ولا تفتح كنوزها ، مالم يوقف على
ما يتصوره هذا الحكيم عن الكائنات ، ويفهمه من سر الخليقة .
ولو كان لنا شغف وولوع بالبحث والتنقيب عن كيفية نشوء
وتطور العلم الطبيعى الحديث فانه يتسنى لنا العثور على أن بعض
الامام بالمنزع الارسطى حق علينا ، بل ضربة لازم حتى نفهم
« باكون ، و دجاليل ، وكثيرين آخرين من نبغوا أخيرا وخالفوا
ذلك الحكيم الخطير وابتسروا نمط النظر العلمى البديع عن الطبيعة .
وإننا إذا لم نوطن أنفسنا على وجوب التعرف بملخص فلسفة
أرسطو وطفقنا ننظر إلى الأدب الخيالى للآفات الحديثة تبدى لنا

« دانتى » ، (ذلكم الشاعر الايطالى) كسفر محتوم ، وكذلك تترامى
لنا فقرات الشعراء « شوسر » و « شكسبير » و « ميلتون » وهى مغلفة
مهمة لا تسكاد تحمل معنى ، ولا تبدى مغزى .

فالرجل الذى يتكلم عن الوسط الذهبى ، أو عن الحرية الحرة ،
أو يعارض مادة تأليف عن الآداب بصورته ، أو يقارن الصفات
الذاتية الجوهرية لموقف ، أو تدير سياسى بأعراضه ، أو يضاهى
النظر بالعمل إنما يردد ألفاظا أو يستعمل صيغا .

وكل ما يرجع اشتقاق معانيها إلى الدور الذى قامت بتمثيله والعمل
الذى أنمت تأديته فى متن لغة أرسطو .

لاجرم حدث بنا تلكم الأسباب والدواعى المهمة التى جثنا
بشرحها فى هذا التمهيد إلى وضع هذا السكتيب وكل ما فى منته هو
ان يعين القارىء على أجود فهم لمثل هذه اللغة المتداولة ، وعلى
تصور صحيح واضح للكثير مما يلقاه ويعثر عليه فى « دانتى »
و « شكسبير » .

حياة أرسطو

إنه لحرى بنا أن نقص بإيجاز قصص الحقائق الواقعة الرئيسية
لحياة هذا الحكيم .

ولد هذا الحكيم الفاضل عام ٣٨٤ أو ٣٨٥ قبل الميلاد بمدينة
اسطاغيرا الصغيرة الكائنة فى شبه جزيرة خلقيديق وهى التى ما
برحت على وجه التقريب تدعى باسم خلقيس ، ولما استكمل من
العمر اثنين وستين ربيعا قضى نحبه ووافاه حمامه . وكان ذلك بمدينة

خلقيس الاصلية الكائنة في جزيرة أفيا ، فكان معاصرا للخطيب
ذيمستانس وشاهد بـكـلتا ناظريه في أبان رجولته ذلكم الشجار
والنهضال الذي تكشف وانجلي عن تأسيس المملكة المقدونية التي
اضحت ذات السلطان والسيطرة على بلاد الهلاذة (أقوام الاغريق) ،
وكذلك رأى وعان بمقلتيه في أيامه الأخيرة تلكم الغزوات التي
قوض بها تلميذه اسكندر الأكبر بناء الامبراطورية الفارسية ،
وحمل التمدن الاغريقى إلى ضفاف نهر السند ، تلك أمور وشئون
وخطوب ينبغي أن تكون عالقة بذهن كل امرئ خاطرة بباله ،
دائرة بخلده ، كلما خاض في درس نظريات أرسطو عن مقومات
الحكم الدستورى فانها تكون نعم العون له على تحليل وتبين ما عن
لنا وسنح في بوادر حالات أرسطو من شبه التقيد ، والتزام بعض
الحدود الحقيقية ، ذلك الامر الذي قد يترامى لنا دون هذه الملحوظات
غريبا داعياً إلى الحيرة والعجب في رجل امثل كهذا المرء النبیه .
وأیضا تزيج الاشكال وتبعث بضیاء شعاعها المنير على كنه
ما كان عليه الفيلسوف من الاقتناع بضعة البربرى (أى الاجنبى
عن الجنس الاغريقى) وانحطاطه طبيعيا في المدارك والشيم جميعا ،
وتعهد لنا الحدس بأن هذا النابغة النبیه ، والداھية الوجیه ، إنما نشىء
في بيئة قصیه كان ينظر فيها إلى البربرى وترمقه عیون الظنون بانه
قاصر فطريا ، ناقص الخلقة والتكوين ، ممنو بالعوائق الغریزية
التي تقعد به عن درجة السكفاءة والمقدرة على السير في ميدان
الحياة العادية ، ذاك ماساق وقاد إلى أن أصبح يقصد بالتمايز بين

الاغريق والبربرى قصد الرجل الأمريكى الناشئ بالولايات الجنوبية من لفظة الفاصل اللوى ، وفضلا عن هذا فاننا عند ما نبغت بمذهبه عن تقسيم الدولة إلى طوائف ، وعن إيثار واعتبار مدينة وجيزة مثلى متقومة ذاتيا ومسوسة بضرب من سياسة الخسة جدير بها مع نظام خير لتربية عامة ، ومع الخلو عن مشاكل مدنية والتجرد عن تقاليد نخيمة البال ، ومطامح بعيدة المنال ، يتحتم أن نتذكر أن ذلك الفيلسوف نفسه كان تابعا لمدينة تضارع تلك المدينة فى الصغر ليس لها ماضى ولا مستقبل .

والواقع أن المدن الخلقيديقية أسست فى البداية (كما ينم عنه عنوان شبه الجزيرة) على أن تغزو مستعمرات لمملكة خلقيس الأصلية السكائنة فى جزيرة افيبا ، والتى كان يشاطرها فى الاستعمار بتلك الجهة تلكة قورنس . وتلك المدائن هى التى سقطت فى قبضة أيدي الاثينيين أثناء ارتفاع عظمة الامبراطورية الاثينية لعهد براقليس .

يبد أنها لم تلبث أن سلخت من أثينية فى اخريات مدة الحرب الارخيدامية بفضل عبقرية الجندى الباسل الاسبارطى والسائس المحنك براسيداس .

وفى صدرالقرن الرابع حاولت المدن الخلقيديقية أن تكون من نفسها وحيدة لولا أن اسبرطة قضت على هذه الحركة وسقطت المدن فى حوزة الملكية المقدونية التى نبغت نابغتها حين كان أرسطو طفلا .

وبعد حين من الدهر وملى من الزمن دبرت المدن مكيدة
مزدوجة ضدا لكل من فيلبس (مقدونية) وأثينية لكن كان
عقبها الفشل والأخفاق وقضى الأمر بانضمام شبه الجزيرة إلى
المملكة المقدونية .

وليعلم أن من أهمات المهمات الجديرة بتوجيه النظر والالتفات
في هذا الصدد أن نعرف بأن الفيلسوف تمت بأصله إلى شعبية من
شعب استقلبياذس كان فيهم صناعة الطب أمرا واثيا يرثه كل خاف
منهم عن سلف ، وإن أباه نقوماخس كان طبيبا في بلاط الملك
أمونطاس الثاني هذا الملك الذي من أجله فعل الاسبرطيون
ما فعلوا للقضاء على الأمة الخلقيديقية ، فاتصال هذا بالطب والبلاط
المقدوني يبين لنا بتباج ونصوع كيف غلب على فلسفته صبغة علم
الحياة ، ويوضح لنا جلليا لماذا كان يقلى الأمراء وبلاط الملوك ذاك
القلي الحار الذي فاه وصرح به غير مامرة هذا وعندما ناهز الثاني
عشرة سنة أى في ٣٦٧ أو ٣٦٦ أرسل إلى أثينية للتخرج في الفلسفة
والعلوم الطبيعية فادخل إلى أكاديمية أفلاطون النائعة الشهرة
حيث لبث عضوا من الهيئة العلمية (هيئة الطلاب والتلاميذ)
الملتفة حول الأستاذ زهاء عشرين حجة .

وبالجملة ظل كذلك مثابرا على الجد في الطلب إلى أن مالت شمس
حياة أفلاطون إلى الأفول .

وكان ذلك سنة ٣٤٧ أو ٣٤٦ وبوفاته لم يلبث أرسطو أن رحل
وبرفقته صديقه وزميله في الدراسة أرمياس إلى آسيا الصغرى حيث

لبث نزيلا ثلاثة أعوام كاملة وفي غضونهما أمسى صديقه هذا بمحض مواهبه وصرف استطاعته ملصكا على مدينة أطارنوس من طروادة ووقف بحماس وتماسك وثبات قويم تلقاء ملك الفرس - ثم كان أن اقترن أرسطو ببوثياس ابنة أخى هذا الصديق . ويلوح لنا أن هذا الاقتران كان سعيد الطالع ميمونا .

هذا ومن تصانيف أرسطو في علم الحياة البحرية يتألق لنا أن معلوماته بها كانت على وجه الخصوص ذات جودة ومتانة وما ذاك إلا من ثمرات نزوله بالساحل الأيوني دانيا من شواطئ الجزائر الدانية المجاورة ، وهذا يكشف لنا بضياته عن اهتمامه بالدرس وولوعه بالبحث آناء مقامه مع أرمياس ويرشدنا إلى أن أفلاطون كان على بصيرة وبينة من ميول عقل تليذه الفذ حيث ألفيناه يتوسم فيه الصبو إلى ذلك الفن من أفانين العلم ، ويدل على أن حظه من مباحث الاقازامية كان مثل حظ اسبوسبوس ابن أخى أفلاطون وخلفه على رياسة الاقازامية في أن جملة كان من نوع مباحث علم الحياة .

ومن المعالم الثابتة لدنيا أيضا أن أرسطو بعد رحلة أستاذه عن هذا العالم بيسير زهيد كان من جملة التلاميذة الآلى نقهوا محاضرات معلمهم التى لم تسكن قد نشرت بعد .

وفي سنة ٣٤٣ اغتيل أرمياس بأيعاز من فارس فأحيا ذكره أرسطو بأشودة تعرب عن شرف الفضيلة طبق ما أعربت هى بنفسها

عنه من الشرف في شخص هذا الملك النبيل الفاضل .

وفي آثار هذا الكارث أزمع أرسطو الزوج عن آسيا فوصلت به مطايا الترحال إلى البلاط المقدوني حيث أسند إليه منصب المربي الخاص لولي العهد الذي كان هو اسکندر الأكبر فيما بعد . وفي هذا الظرف (٣٤٣ قبل الميلاد) لم يكن إلا من أبناء الثلاثة عشرة . فعاشرة الفيلسوف العظيم للملك العظيم كان لها بالطبع أثر مدهش في خيال العصور الأخيرة ، حتى أننا في ترجمة فلوطرخس لحياة الإسكندر نرى أمراً واقعاً من قبل تلك الأسطورة الضخمة والثرثرة العربية عن تأثير فلسفة أرسطو على الإسكندر .

ومهما يكن من أمر فلا يحتمل أن يكون تأثير أرسطو ذا فعل قيم في تكوين خالق الإسكندر فيغضه أرسطو لسياسات الوحدة والاضروب التي تلحق بها بادية بجلاء من كتابيه الأخلاق والسياسة .

أما المدينة الصغرى القائمة بنفسها المتجردة عن المطاعم السياسية تلك المدينة التي يعجب بها أرسطو فإنها عند الإسكندر ووالده فيلبس من قبله ليست إلا حلماً من أحلام القدماء ورواية من رواياتهم .

والشاهد الأوضح من البيئة المدينة عن صفة العلاقة بين الأستاذ وتلميذه فقرة وردت في كتاب تهنته بعث به خطيب الجمهور اللاتيني ايسقراطس إلى الفتى اسکندر يهنئه فيه (مرغماً لا عن طيب نفس)

ان فضل الخطابة العملية تجاه الجمهور على النظرية العلمية وابتداله المناطقة وأمعانهم في متجاوز التشقيقات والتقسيم .

ولا أدل على أزورار أرسطو عن مطامع تلميذه من أنه بالرغم من دراسة نظرياته السياسية بيقين خلال السنين التي ظل فيها الاسكندر ينشئ الهلاذية نشأتها الجديدة بتأسيسه امبراطورية عالمية ، لم يلبع في تلك النظريات إلى شيء من ذلكم الانقلاب الخطير الذي حدث في النظام الاجتماعي .

وكل ما قاله أرسطو وأفضى به إلينا ألقاه علينا وكأن لم يكن للاسكندر وجود وكان مدينته الصغيرة آخر ما تطورت إليه السياسة الهلاذية وكتب عنها .

من ثم يغلب على الظن أنه لم يكن انتخاب أرسطو وهو إذ ذاك لم يكن قد برز نصب أعين الناس مفكرا حرا ليشغل وظيفة المربي لولى العهد من تلقاء شهرته الشخصية بل لما لاسرته من العلاقة بالبلاط أضف إلى ذلك ما اكتسبه من المكانة بتلميذه على أفلاطون الذي بفضل تدخله في أمور صقلية العامة أمست الاقازامية في النظر والاعتبار ملجأ خاصا للاشتغال العلمى بالسياسة والفقه .

قد يكون من الأمر الحائز بالصدق أن الاسكندر وجد فرصة (وهو في غمرة الفتوحات) ليمد معليه الخاص بنماذج من علم الحياة ، وبالجملة فمن المؤكد تاكد الواقع أن أمانى وأخلاق كلا

الرجلين كاتنا على طرفي خلاف يحول دون تأثير الرفاقة من أحدهما على الآخر .

هذا وان الإسكندر عندما دعى بغتة إلى عرش مقدونية اثر واقعة قتل أبيه ٣٣٦ ق م لم يعد بالامر حاجة إلى منصب التربية ذلك فالغى ولم يكن إلا عشية أو ضحاها حتى عاد أرسطو ادراجه إلى اثينية وافرغ الاشتغال بالأشغال العلمية المحضة .

واتفق في ذلك الحين أن خلت الاقازامية من الرئاسة وذلك بوفاة اسبوسبوس الذي كان في السابقة رصيف أرسطو في إبحاث علم الحياة فانتخب لها اكسنوقراطس الخلقيدوني ويمكن أن يظن أن أرسطو إذ ذاك شعر بحرج أصابه عند ما أخطأه سهم الانتخاب .

ومهما يكن من أمر فان أرسطو وإن كان لم يقطع في الظاهر والعلن صلته نهائيا بالاقازامية أقبل في ٣٣٥ ففتح معهدا في اللوثيوم أو موضعا للتعليم من الملحق بهيكل أبولو لوثيوس منافسا للاقازامية التحق به العدد العديد من نابيها ومن أجل أنه كان يعلم في المتمشى أو الرواق المسقوف من ذلك الملحق دعى مذهبه بالمذهب المشائي .

ولبت أرسطو في السنى الاثنتى عشرة التى خلت من بعد

ذلك معنى بتدبير معده وإعداده ليسكون موثلا للبحث في كل شىء وبتأليف عديد المحاضرات عن المطالب العلمية والفلسفية . وبهذا أضحى على وجه العموم أهم مميزين المعهد الجديد والاقازامية أن الأفلاطونيين يحصرون همهم في التعليميات ، وأبناء اللوثيوم

يجولون في كل مضمار وإن كانت تحريرات اللوثيوم الرئيسية إنما
تقوم حول علم الحياة والتاريخ .

وقضى في لواحق عهد الاسكندر ان خامره الريب في أمر
معليه القديم صاحب الفضل الاثيل واختلجه الاشتباه به فتحول
عنه قابله وتنكرت أنظاره نحوه فتوترت علاقته به وقلب له ظهر
المجن ، وذلك أن قريب أرسطو المؤرخ قالستانس كان قد غشى
غزوات الاسكندر ليدون أنباءها ويسجل أخبارها ، ثم انه انبرى
فأخذ ينهى بالائمة ويحيل بالتهنيف على الاسكندر وينكر عليه
ما صنع من الأصرار على التوقف عن تخويل رعاياه الهلاذين
ما طمحو اليه واسماهم بما تقدموا به اليه من شبه المركز الدستوري
إذعانا لرائد الغطرسه والاستبداد الشرقي ، فاحفظ ذلك
الاسكندر واستفز غضبه وأوغر صدره عليه .

فكان استقلال المؤرخ بفكره واستباحته الحرية لنفسه في
إبداء رأيه نذر خطر فان ذلك الاقدام والتجرؤ جر عليه الاشتباه
فيه وقرف بأنه رأس مؤامرة دبرها فيما بينه وبين صنائع الاسكندر
هدفها الفتك به واغتياله ، وأعقب ذلك أن أعهد صلبا أوزج
في أعماق السجون حيث عاجلته منيته قبل محاكمته على اختلاف
الروايات .

ويقال أن الاسكندر رأى أن أرسطو مسئول عن خيانة
قريبه ، مأخوذ بجنائته ، فان افترض صحة ذلك كان من حسن حظ

أرسطو أن شغل الاسكندر بغزو الهند وخلص المعلم بذلك من براثن الانتقام ومغبات الاتهام .

وفي العام الذي قضى فيه الاسكندر نحبه وهو عام ٣٢٣ ق . م قامت ثورة ضئيلة في أثينا إلا أنها عنيفة شديدة من حيثية مضاداتها للمقدونيين ، فلما كان لأرسطو من العلاقة بهم وقع بالطبع فريسة رغما نفوره واجتوائه لأمانى فيلبس وابنه الاسكندر فقرف بما قرف به من قبله سقراط من تهمة الكفر الفظيعة تعللا بأن تأييده لأرمياس المسطر منذ عشرين عاما تصرمت من قبل كان في حكم تأليه صاحبه ، ولكن لم يكن هذا الاحتجاج إلا رياء وتظاهرا فقط . والواقع انه ما اعتدى على ناموسه ونيل من جانبه إلا يسد أمر سياسي وذلك بما كان له من الصلة بالزعيم المقدوني انطيطر ، وبما أن القتل كان أمرا حتما ، وحكما جزما ، أحس به الحكيم فلاذ بالجلام عن أثينا وشخص إلى مدينة خلقيس التي كانت أم القرى في هذه الناحية وحاضرة اسطاغيرا مسقط رأسه ، وهناك بعد سنة استأثر الله بروحه حيث أسلم الروح وهو في سن اثنتين أو الثلاث والستين . أما ملاح أرسطو ومخايله التي تلوح لنا من تمثاله النصفى فبهية حسناء ، غير أنها أكثر دلالة على تهذيب وذكاء منها على إعجاز ودهاء ، ويقع لنا ذلك التفريس بالرغم عما كنا نتوقعه بما تتركه في نفوسنا دراسة مؤلفاته من آثار الاندهاش وآيات الاعجاب .

أما ما يتحدث به عنه من روايات الأقا صيص فانها إنما تم عن

عواطف و داد ، ورقة وحنان . ولا تكشف من مقدار الأهمية التي
تفصح عنها مؤلفاته إلا عن قليل ضئيل . وملء وصيته المحفوظة لدينا
إلى اليوم شواهد التصبر والقيام بالواجب ، والخلق الحسن الذي
تقتضيه الحياة العائلية ، كما أن كلها دلائل الاهتمام وعلامات الاعتناء
بولده وحشمه .

ولقد قدر لهذا الأصيل المجيد النبيل أن اقترن باثنتين :
أحدهما بوثياس والآخرى اربلس ، ومن هذه أنجب بنيه
نقوماخس وابنة ، وقد اختص بالذكر في درج نصوص وصيته
برّ اربلس التي منحها فيها بتوصية خاصة .

ولكن بينما نطالع ذلك اذ نرمق شعور الكاتب الحار نحو
بوثياس من الإشارة بان رفاقتها يجب أن يوسد في نفس الرمس
الذي يوسد هو فيه ، ونستطلع من تعداد أسماء الخدم والغلمان
والمبار التي وصى بها لهم ان هذا الحكيم كان أرغد عيشاً ، وانعم
حالا من شيخه أفلاطون .

تأليف أرسطو — إن ما يدعى بتأليف أرسطو ليأخذ بقيادنا
إلى إحدى غرائب المشكلات ، وذلك : أننا إذا انعطف بنا النظر من
أفلاطون إلى تلميذه ترانا وقد انتهى بنا التجول والتنقل إلى جو من
طراز آخر ، فكتاب أفلاطون المسمى بمباحثات سوفراط يعرض
على مداركنا أسلوباً ثرياً قد يجوز أن يكون أبدع ما دبحته براعة
في الآداب ، وخير ما أخرج للناس من منشور الكلام ، فلا يكاد
يوافقنا الجد بصوغ عبارته أو يدانيه في الفصاحة ، والبراعة ، والخيال

الرائع ، والمنطق الحاسم لسكل شبهة ، ويلقى إلينا بذكاء لا يدفع
بمزوج بزالال السمو وعذب التفككة ، وهذا مع ما نقف عليه من
آثار أرسطو على طرفي نقيض ، فأسلوبه جاف وعلى صوري ،
ولغته غاصة مترعة بالمصطلحات ، وقلما تحرك من العواطف . على
أنه يكره الأسلوب المجمل ، ويقتنى عادة أبسط القواعد في الإنشاء .
وما يدعونا إلى أكبر العجب أن نرى اللاحقين من قدماء
الكتاب مثل « شيشرون » ، يلهمجون بفصاحة أرسطو الذهبية السيالة
مع أننا نرى كتابات أرسطو التي بأيدينا في عوز من هذه المزية
العظمى .

إن تحليل ذياك العجب لخطاب يسير ، وإن السبب فيه لأمـر
وجيز بسيط . وذلك : قد تم لذين الحكيمين ووقع لها حقا أن كان
كلاهما أستاذًا خطيرا وكاتبًا أدبيا نحريرا ، وأن كليهما حرر كتابا
وحبر صحفا ليتداولها العموم من أهل الخطاب ، وألقى محاضرات
لزمرة خاصة من الطلاب وأولى الأسباب . لكن بينما محاضرات
أفلاطون نلفيها وقد باتت بيد الضياع نهبا إذا كتبه وقد آلت إلينا
وظفرت بها يدنا ، وعلى العكس من ذلك ما أثر عن أرسطو
وجادت به قريحته من الإفادات والإرشادات فإن كتبه الجمل
أنشب فيها الفقدان أظفاره ولم نظفر إلا بمحاضراته .

فالملفات التي امتدحها « شيشرون » ، وأطراها لما أبدته من براعة في
الفصاحة وإجادة وإبداع في اليسان ، كانت مسائلات ومجاوبات
ومثالا لإنشاءات « شيشرون » ، نفسها في هذا الشأن .

ولم يقع بصرنا منها على عين ولا أثر اللهم إلا شذورا وانتفا
معدودات جاء بها المتأخرون للاستشهاد بها في موارد خاصة ، فأما
ما نطلق عليه اسم تأليف أرسطو فليس إلا مخطوطات محاضر نقحها
تلاميذه من بعده ونشروها في توالي عهده ، وذلك باد بجلاء من
بيانات وشواهد داخلية وخارجية ، وإننا في مثال واحد لنستفيد من
الانتقاد والمراجعة المزدوجين . وإليك مثلاً : لقد وافقنا أخلاق
أرسطو أو مباحثه الأخلاقية في تأليفين اثنين
أحدهما يعرف بكتاب أخلاق نيقوماخس نبجل الفيلسوف ،
عزى إليه إذ كان هو الذى رتبته وهو حائز لجملة المزايا التى لجميع
المحاضرات الشفوية .

والآخر : يدعى أخلاق « أوديمس » نظم شملها وأفرغها في
صيغة أخرى تليده له مبرز في التعليميات يعرف بذلك الاسم .
هذا وقد أتاح لنا الدهر فاستنقذنا من أعماق الثرى وأطباق
رمال أرض الفراعنة ما نستظهر أنه أول باكورة من نموذج تأليف
أرسطو ، وأنه رمى بإخراجه للناس إلى أن يكون بأيدي العامة
يتداولونه ويتناولونه بسعة ، وهذا هو رسالته في نظام الأثينيين^(١) .
وهي ذات أسلوب ساس سيال ، ومتعارف مألوف بين جمهور
الأنام ، يوقفنا على أن هذا النجم الثاقب ، ذى الفكر الفياض
الصائب ، كان في استطاعته الإجابة وحسن الصناعة والصياغة ،
وإنه كان في منتهى وطاقته أن ينمق ويتأنق ماشاء ، ويأتى بالابداع
متى رأى المقام لائقا والحال موافقا .

(١) ترجم هذا الكتاب الدكتور طه حسين .